

كافور الإخشيدي

عثمان أبكر عثمان



كافور الإخشيدى

عثمان أبكر عثمان

اهداء

لأمي لها الرحمة والمغفرة كلتوم رمضان وأبي
أبكر عثمان عبدالله وأخواني وأختي
العزيزة.. علي.. محمد.. يحي.. ادريس.. عمامة.. خلي
فة.. عبدالله.. ابراهيم.. خلف الله

المقدمة:

حكام كثيرون مروا على المحروسة، ما بين الظالم والعاقل، والمجنون، تكررت الحالات إلا واحدة وهي أن يحكم مصر أحد الرقيق، وهو ما فعله أبو المسك كافور الإخشيدي. تداوله النحاسون وبيع في سوق الرقيق، فاشتراه في عام 923 محمد بن طنج مؤسس الأسرة الإخشيدية، يزيد من الاستثناء غرابة هو أنه «مسلوب الرجولة»، ووصفه المؤرخون بأنه كان «دميماً قبيح الشكل»، و«مثقوب الشفة السفلى، وقدميه مشوهتين، ثقل الخطى، فوقع في يد أحد تجار الزيوت فسخره في شؤون شتى. ورغم شكله الذي ينفر منه الناس، إلا أن الحظ كان حليفه بعض الشيء حيث باعه سيده فوقع في يد محمود بن وهب بن عباس الكاتب،

فتعلم القراءة والكتابة، وكان سيد علي علاقة بمحمد بن
طغج ويعرفه منذ كان قائداً من قادة تكين أمير مصر.

نبوغ وحرية رأى محمد بن طغج في كافور النبوغ
فاشتراه وفعينه كمشرف على التعاليم الأميرية لأبنائه،
ورشحه كضابط في الجيش، ثم لاحظ ولائه وإخلاصه
وموهبته جعله حرا وأطلق سراحه، وأرسل كقائد
عسكري في عام 945 لسوريا، ثم قاد عدة حملات
أخرى في الحجاز، كم تولى لترتيبات والشؤون
الدبلوماسية بين الخليفة في بغداد والأمراء الإخشيديين.
أصبح الحاكم الفعلي لمصر بعد وفاة محمد بن طغج
«كوصي على العرش»، حيث صحت رؤية السيد في
عبده المحرر، إذ فقد يحكم قبضته على مقاليد أمور
الدولة، حيث إن ولي العهد أنوجور «محمود» كان لا
يزال صبيا في الخامسة عشرة من عمره. كافور لم يتح
لأنوجور الفرصة ليمرن نفسه علي الحكم، ولم يدعه
ينخرط مع الناس، فأفل نجمه، وسطع كافور الذي دعا
له الخطباء علي المنابر

دون أونوجور، في الوقت الذي كان ينال فيه أونوجور ما خصصه له كافور من مال بلغ أربعمائة ألف دينار في العام. القتل جزاء الإحسان أونوجور السلطان المفترض، هرب إلى فلسطين لجمع الجنود لاستعادة ملكه إلا أنه أمه رأت أن لا أمل من معاداة أبي المسك إذ أن خزائن الابن ولي العهد لا تقوى على مجارة الحرب مع حاكم مصر الفعلي، ووجدت أن الوقوف في صفه ومكسباً لأسرتها. مات أونوجور في الثلاثين من عمره، وقيل أن كافور دس له السم، وتبعه أخوه الأصغر «علي» وعجل كافور بموته بعد أن دس له السم أيضاً. انتقام المتنبي استخدم كافور الأدب كوسيلة لتعزيد حكمه، إذ اكتسب شعبية كبيرة بين العلماء والأدب برعايته لهم فدعوا له بين العامة، فكانوا أفضل وسيلة إعلام في وقته، لذا حرص على إكرامهم.

ومن بينهم أسطورة الشعر العربي أبي الطيب المتنبي
الذي مدحه كثيرا، إذا كاتبه كافور لإحضاره من الشام،
وجاء فكان أول عطاياه داراً ثم أموالا بإغداق، فنظم
المتنبي قصيدة والتي اشتهرت بمعاتبته «سيف الدولة»
الذي نحي الشاعر المخضرم من مجلسه، فقال في
كافور: مابال قبرك ياكافور منفرداً بالصّصح
المرت بعد العسكر اللجب يدوس قبرك أحاد الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب وكما كان الأدب
داعمه الأكبر، فكان أيضا أكثر ما أفقده هيئته، إذ بخل
على المتنبي في العطايا، فتخلى عن مدحه وبدأ في
هجائه بأبشع الصفات ومنها: نَامَتْ نَوَاطِيرُ مِصْرٍ عَنْ
ثَعَالِبِهَا فَقَدْ بَشِمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعَنَاقِيدُ صَارَ
الْخَصِيَّ إِمَامَ الْأَبْقِينَ بِهَا فَالْحُرُّ مُسْتَعْبِدٌ
وَالْعَبْدُ مَعْبُودٌ لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ
إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاقِيدُ

حب المصريين رغم الصراعات التي خاضها في
الدولة، إلا أن المصريين أحبوه وزادت شعبيته بينهم، إذ
كان يقضي حوائجهم بنفسه على مرآهم ومسمعهم،
وكان جوادا مع رعيته، واعتبره المؤرخون أنه دليل
على عدم وجود عنصرية في التاريخ الإسلامي إذ تدرج
في الحكم وأثبت للجميع أن الرق ولون البشرة لم يكونا
سببا في تنحيته رغم جدارته. وفاة كافور مات كافور
الإخشيدي عام 968م، بعد أن حكم لأكثر من 20 عاما،
قضاها في صراعات مع رجال الدولة لمحاولة إثبات
جدارته وقوته وقدرته على قيادة الجيش ومن بعدها حكم
مصر.

الفصل الأول

الدولة الإخشيدية

قبل ولادة الدولة الإخشيدية تدهورت أحوال الدولة الطولونية في أيامها الأخيرة في مصر وتطلعت الدولة العباسية إلى استعادتها والسيطرة عليها من جديد بعد أن غلّ الطولونيون يد الدولة العباسية عنها زمنا طويلا، فأرسلت من قبلها جيشا من العراق يقوده محمد بن سليمان لإعادة مصر إلى حوزتها، وكان من بين قادته "طغج بن محمد"، فلما نجح الجيش في مهمته واستعاد مصر للدولة العباسية عين "طغج" والياً على قنسرين في بلاد الشام، ثم ما لبث أن انتقل إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية مصطحباً معه ابنه محمد وعبيد الله، والتحقوا بخدمة الخليفة العباسي المكتفي بالله (289-295هـ = 901-908م)، غير أن الأيام عبست في وجه "طغج بن محمد" فغضب عليه الخليفة العباسي وألقى به في غياهب السجن ومعه ولداه، وظل

محبوسا حتى توفي وخرج ابنه من السجن، فالتحق
عبيد الله بخدمة أمير شيزار بفارس، في حين التحق
محمد بخدمة أحمد بن بسطام عامل الخراج بالشام.

ميلاد الدولة الإخشيدية

ولما انتقل "ابن بسطام" إلى مصر لتولي خراجها،
استمر محمد بن طغج في خدمته، ثم التحق بعد وفاته
بخدمة ابنه "علي بن أحمد" الذي خلف أباه في منصب
الخراج، وظل يعمل معه حتى عزل عن خراج البلاد
سنة (300 هـ = 912م) وبقي في مصر لم يغادرها
واتصل بواليتها "تكين"، وعمل معه في صفوف جيشه،
وبدأ في الظهور والتألق، فاشترك معه في صد هجمات
الفاطميين، في المغرب التي كانت تتطلع إلى مصر
لضمها إليها وانتزاعها من الدولة العباسية، ورشحته
كفاءته لتولي المناصب القيادية، فتولى إدارة

مدينة الإسكندرية سنة (307هـ = 919م)، وأظهر
مهارة وقدرة في إدارتها والدفاع عنها جعلت الخليفة
العباسي المقتدر بالله يعهد إليه بإدارة الرملة بفلسطين
سنة (316هـ = 928م)، ثم بولاية دمشق سنة
(319هـ = 931م)، ثم أضاف إليه الخليفة العباسي
"القاهر بالله" ولاية مصر سنة (321هـ = 933م) لكنه
لم يذهب إليها بسبب الفتن التي كانت تعصف بها.

ولاية مصر

لم يجد الخليفة العباسي الراضي بالله خيرًا من محمد بن
طغج ليوليه مصر، ويعيد إليها الأمن والسلام، وقمع
فيها الفتن والثورات، فعهد إليه بها سنة (323هـ =
935م) واستعد ابن طغج لما أسند إليه، وتجهز للأمر
وأعد عدته، والأمر ليس هينًا بعد أن وقف في وجهه
أحمد بن كيفج والي مصر السابق،

ومحمد بنعلي الماذرائي عامل الخراج، وحالا بينه وبين تولي مقاليد الأمور، فلجأ ابن طغج إلى سلاح القوة والبطش فتسلح بهما، واتجه إلى مصر على رأس حملة عسكرية برية، ترافقه حملة بحرية نجحت في الاستيلاء على ثغور مصر في دمياط، وسارت في النيل حتى بلغت "سمنود"، وهناك التقت بسفن ابن كيلخ والماذرائي وألحقت بهما هزيمة ساحقة في (شعبان 323هـ = يوليو 935م)، وواصلت سيرها حتى بلغت جزيرة الروضة بالقاهرة، وفي أثناء ذلك كانت قوات ابن طغج البرية قد نجحت في فتح مدينة الفسطاط في (رمضان 323هـ = أغسطس 935م).

وما كادت أقدامه تستقر في عاصمة البلاد حتى بدأ في تثبيت نفوذه، والضرب بشدة على الخارجين على النظام، والقضاء على القلاقل التي يثيرها أنصار الحاكم السابق، والعمل على صد هجمات الفاطميين الذين لم يبيئوا في ملاحقته بحملاتهم العسكرية المتكررة، وقد أدت جهوده إلى استقرار الأوضاع في مصر، وتلقب الخليفة له بلقب الإخشيد، وهو لقب كان يطلق على ملوك فرغانة، وهي إحدى بلاد ما وراء النهر التي تتاخم بلاد التركستان، ويعني هذا اللقب باللغة التركية "ملك الملوك".

عقبات في طريق الإخشيد

غير أن هذا الاستقرار الذي حققته الدولة الإخشيدية في

مصر والشام كدّر صفة تطلع 14

ابن رائق الملقب بأمرئ الأمرء إلى الشام وكان يتقلد إمارة الجيش ببغداد، وخرج جميع البلاد الإسلامية التابعة لدولة الخلافة العباسية، فأخذ يهدد الإخشيد ويطالبه بمال كأنه جزية على الممتلكات الإخشيدية في الشام، فلم يرق ذلك للإخشيد، واشتعل القتال بينهما حتى تم الصلح بينهما على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمال الرملة، وأن يدفع الإخشيد إليه جزية سنوية قدرها 140 ألف دينار، على أن الإخشيد لم يلبث أن استعاد الشام بعد مقتل ابن رائق سنة (330هـ - 941م)، فدخل دمشق وفرض حكمه بحد السيف، وأصبحت الشام كلها تحت سيطرته، وأضاف إليه الخليفة العباسية "المتقي بالله" مكة والمدينة.

الخليفة العباسي يستنجد بالإخشيدي

نجح الإخشيدي في أن يوطد علاقته بالخليفة التقي بالله ويوثق عرى المودة بينهما، إلى الحد الذي جعل الخليفة يستنجد به بعد أن ساءت العلاقة بينه وبين "تغرون" أمير الأمراء، فكتب إليه أنه سائر للقائه في "الرقعة" بالعراق سنة (333 هـ = 944م)، وفي هذا اللقاء بالغ الإخشيدي في إظهار آيات الولاء للخليفة العباسي، وعرض عليه أن يسير معه إلى مصر ويكون هو ورجاله في خدمته، لكن الخليفة العباسي رفض دعوة الإخشيدي، ومع ذلك فقد حصل على تقليد جديد من الخليفة بولاية مصر، وحق توريث إمارتها لأبنائه من بعده لمدة ثلاثين سنة قائلًا له: "وليتك أعمالك ثلاثين سنة فاستخلف لك أونوجور"، وهو أحد أبناء محمد بن

طغج.

الإخشيذ والحمدانيون

ولما عاد الإخشيذ إلى مصر بعد لقاء الخليفة العباسي رأى سيف الدولة الحمداني الفرصة سانحة للاستيلاء عليها وانتزاعها من أيدي الإخشيذيين، بعد أن نجح في تكوين دولة قوية، فسار إلى حلب وقنسرين وحمص وأنطاكية والثغور الشامية، فاستولى عليها، فلما وصلت هذه الأنباء للإخشيذ خرج على رأس جيش كبير للقاء سيف الدولة الحمداني، ووقعت بينهما معركة عند قنسرين بالقرب من حلب، وكان النصر فيها للإخشيذ، لكنه لم يكن نصرًا حاسمًا، وهو ما دعا الإخشيذ إلى الجنوح إلى السلم والميل إلى الصلح، فعقدت بينهما معاهدة في (ربيع الأول 334هـ = 945م)،

واتفقا على أن يكون لسيف الدولة من حمص وأعمالها إلى الشام، وأن يكون للإخشيدي من دمشق وأعمالها جنوباً، وزيادة في توثيق الصلح بين الطرفين، تزوج سيف الدولة من فاطمة بنت عبيد الله بن طغج، وسار إلى حلب واستقر بها، وسار الإخشيدي إلى دمشق واستقر بها إلى أن مات فيها في (24 من ذي القعدة 335هـ = 16 من يونيو 946م)، وهو في السادسة والستين من عمره، بعد أن حكم مصر والشام إحدى عشرة سنة، ونقل جثمانه إلى بيت المقدس حيث دفن هناك، وتولى بعده ابنه أبو القاسم أونجور، ولما كان صغيراً لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره لا يستطيع النهوض بأعباء الحكم، فقد تولى كافور الإخشيدي تدبير أمره وإدارة شئون الدولة.

العطاء الحضاري

ونظرًا لطموح الإخشيد في بناء دولة قوية ثابتة الأركان فقد عنى بالجيش وما يتصل به عناية فائقة، حتى بلغ عدده في بعض الروايات التاريخية أربعمائة ألف جندي من مختلف الأجناس في مصر والشام، وأنشأ داراً لصناعة السفن بساحل الفسطاط، وأطلق عليها دار الصناعة الكبرى، وجعل من دار الصناعة التي في جزيرة الروضة بستاناً فائق الروعة والجمال بالغ الحسن والبهاء، أطلق عليه المختار، وكان يفاخر به أهل العراق، وأنشأ بستاناً آخر في شمال الفسطاط عرف باسم البستان الكافوري، ومكانه اليوم سوق النحاسين بالقاهرة.

وكان بلاط الإخشيد مجمعا للعلماء وملتقى لأهل اللغة والأدب، يصلهم بعطاياه، ويمنحهم جوائزهم، وكانت البلاد غنية بهم، واشتهر منهم في الفقه والحديث أبو إسحاق المروزي، وأبو سعيد عبد الرحمن بن يونس، وفي التاريخ ابن دحية، والكندي وابن البطريق، ومن النحاة أحمد بن محمد بن ولاد، ومن الشعراء أبو الفتح محمد الحسين المعروف بكشاجم.

ونفض الإخشيد بالحياة الاقتصادية للدولة، فزادت غلة الأرض وازدهرت الصناعة ونشطت التجارة، وقد أعجب المؤرخ المعروف أبو الحسن علي المسعودي بالنهضة التي أحدثها الإخشيد، وسجل ذلك في كتبه ومؤلفاته حين زار مصر.

وعنى الإخشيد بزيادة العمران وتشيد القصور وإقامة
البساتين وإنشاء المساجد، والبيمارستانات لاستقبال
المرضى ومعالجتهم.
وفي عهد الإخشيد ظهر منصب الوزير رسمياً لأول
مرة في مصر، وكان أبو الفتوح الفضل بن جعفر
الفرات هو أول من تولى هذا المنصب حتى وفاته
سنة (327هـ = 939م) ثم خلفه ابنه جعفر بن الفضل.
ويذكر للإخشيد أنه كان يجلس للنظر في المظالم يوم
الأربعاء من كل أسبوع، وكان ذا دين يحب الصالحين
ويتقرب إليهم ويحضر مجالسهم، وقد دفعته هذه النزعة
الطيبة إلى هدم أماكن الفساد واللغو وإغلاقها.
وتصفه الحوليات التاريخية بأنه كان ملكاً حازماً متيقظاً
لأمور

دولته، حسن الرأي والتدبير شديد البطش، ذا قوة
مفرطة قوي الساعدين حتى لا يستطيع غيره أن يجر
قوسه، وفي الوقت نفسه وصفته بحبه الشديد للمال وميله
إلى مصادرة أموال كبار رجاله لأدنى شبهة، أو لسد
نفقات الدولة والإنفاق على جيشه، وقد جمع من
المُصادرة أموالاً كثيرة بالغ المؤرخون في تقديرها بعد
وفاته.

الفصل الثاني

كافور الإخشيدي بين هجاء المتنبي وحقبة

مَنْ يقرأ المتنبى فلن تَغيبَ عنه أبياتُ الهجاء التي قالها
في كافور الإخشيدي، وربّما لم يحفظ بعضهم عنه إلا
تلك الأبيات، ومَنْ سمع بكافور من طريق المتنبى فقد لا
يُسلم أن يكون من الغاوين إن لم يتساءل عن الحقيقة،
أين تكون؟ أما لو قرأنا التاريخ، وعرفنا ما كان عليه أبو
المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي، لتملّكنا بعض
الحياء من تلك الأبيات المقذعة، ولاستبدلنا الثناء عليه
بالهجاء، وأعقبنا ذلك بالدعاء له بالرحمة والرضوان.
تزوير التاريخ

إنَّ التَّاريخ لا يسلم من التزوير حينما يُؤخذ من أفواه
الشعراء، ولا سيّما أولئك الذين يتّخذون من شعرهم
مصدرًا لنيل المجد وتحقيق المُلذّات النفسية؛ ذلك أن
تقييم أولئك لمن يتقصّدونهم من أصحاب الرّئاسة وذوي
الشان لا يتمُّ إلا من خلال نافذة الوصل والعطاء؛
{وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}

حقيقة المتنبي

وإذا كان تعبيرُ المتنبي لكافور بأنه عبد دميم قد بيع في الأسواق، فإنَّ هذا ليس باختياره، ولا يُلام الإنسانُ على ما كتبه الله عليه قدرًا، وإذا أردنا البَحْثَ عن عيوب الرِّجال المكتسبة، فإنَّ شاعرًا كالمتنبي -في الوقت الذي كان يفوق شعراءَ عصره جزالةً ومعنى- لم يكن إلا مرتزقًا من الطراز الأول، فحياته التي تنقل فيها ما بين الشام ومصر والعراق وفارس لم يكن له هدفٌ غير انتقاء الولاة البارزين والاتصال بهم، حيث مكنته موهبةُ الشعر من ذلك؛ طمعًا في كسب المال والجاه والقُرب، ولا نعلم أنَّ للمتنبي هدفًا غير ذلك!

إنه لم يكن يحمل همَّ أمةٍ أو دين، ولم يكن معنيًا بمذهب أو عدلٍ من يتصل به من الولاة، فقد اتَّصل بسيف الدولة الحمداني، ورغم شجاعته وعطائه إلا أنه

كان شيعيًا كثير الضرر بأهل السنة، قال ابن كثير واصفًا حال حلب عندما غزاها الدمستق: " .. وكذلك حاكمهم ابن حمدان كان رافضيًا يحب الشيعة ويبغض أهل السنة، فاجتمع على أهل حلب عدّة مصايب؛ [البداية والنهاية (11/255)]. وقد يجوز لنا إضافة المتنبي إلى قائمة المصايب تلك؛ لأنّه آلة الإعلام التي كانت تُبجّل الحاكم وتُخفي عيوبه.

ثم قصد المتنبي بعد ذلك (كافورًا) في مصر، وقد مدحه بأنفس القصائد، فلما رأى أنه لم يجد بُغيته عنده هجاه بأقذع ما أملتّه عليه موهبته الشعرية من هجاء، ثم لاذ بالهرب من مصر خفية، واتّصل بعد ذلك بعضد الدولة البويهية، الذي تمكّن من حكم بغداد في تلك الفترة، وقال فيه شعرًا رائقًا، وعضد الدولة كان شيعيًا رافضيًا يكره أهل السنة ويحيي البدع، حتى تلقّب بما لا ينبغي من الألقاب فلُقّب

ب(شاهنشاه)، وهي تعني: (ملك الملوك).

كافور في عيون المؤرخين
ونعود إلى كافور الإخشيدي لنرى: هل كان أهلاً لهجاء
المتنبي اللاحق، أم كان أهلاً لما سبق من الثناء؟
إذا نظرنا من جانب الاقتدار والمواهب ومن جانب
التدين، فنحن أمام رجل "كان شهماً، شجاعاً، ذكياً، جيداً
السيرة، مدحه الشعراء"؛ هكذا قال ابن كثير عنه في
تاريخه.

ولو لم يكن كافور الإخشيدي حاكماً مقتدرًا بارزاً في
عصره لما قصده المتنبي في مصر، وكفى بهذا مكرمة،
ولو لم يكن كافور من الفطنة والاقتدار في الحكم، لما
مدحه المتنبي بأفضل شعره، فإن ما قاله المتنبي في
كافور من مدح وثناء يتجاوز رونقاً وجمالاً ما قاله في
غيره، فيا ليت شعري أنصدق المتنبي في ثنائه السابق
أم في هجائه اللاحق؟

وليس في عبودية كافر من عيب إذا علمنا أن يوسف عليه السلام وهو الكريم ابن الكريم قد ابتلاه الله بشؤمها، فبيع في مصر بثمن بخس دراهم معدودة، ثم يتحول بعد ذلك إلى الحاكم الفعلي في مصر، فإن لكافور الإخشيدي تجربةً مشابهةً في كسر حواجز العبودية وقُبْح المنظر، حتى اعتلى سُدَّة الحُكم في مصر، فقد بيع في مصر بثمانية عشر دينارًا.

وإذا ابتلي بالعبودية فإن الله قد امتنَّ عليه بمواهب خارقة، تجعل من هذا العبد مقرَّبًا ومصطفى لدى السلطان محمد بن طغج، الذي اشتراه بذلك المبلغ الزهيد، حيث أُعجب باقتداره وتمكُّنه، ثم جعله (أتابكًا) حين ملك ولداه، ثم استطاع هذا العبدُ الحقير باقتدار وحكمة أن يستقلَّ بالأمور في مصر بعد موتهما، وأصبحت له مملكة مستقلة ودُعي له على المنابر المصرية والشامية والحجازية،

وحكم مصر سنتين وثلاثة أشهر حتى توفي عام
357هـ.

ولولا هجاء المتنبي لكانت شخصية كافر مثلاً فريداً
للطموح والتحدّي، راق طرحتها في دورات التنمية
الذاتية؛ إذ كيف يتمكّن عبدٌ حقير -يُباع بدنانير معدودة-
من أن يصبح مقرّباً من الحاكم المصري، ثم يستطيع
باقتدار أن يتولّى زمام الأمور بعد موته، وليس هذا
فحسب، بل كسب حبّ الناس، ورضاهم بعدله وإدارته
الحكيمة، بل ويُدعى له في الحرمين الشريفين والمنابر
الإسلامية المشهورة.

وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه باباً دون الفتن
الكبرى التي حلّت بالأمة الإسلامية بعد موته، فقد كان
كافور الإخشيدي -في زمن آخر- سدّاً وباباً منيعاً دون
فتنة الفاطميين، فقد كان الفاطميون الذين تمكّنوا

من حُكْم المغرب العربي يرون أنّ "كافور الإخشيدي" ذلك السدّ الذي يحول بينهم وبين الاستيلاء على مصر والحجاز، وقد باءت كل محاولاتهم التوسعية في مصر بالفشل، ولم يتمكّنوا من الاستيلاء عليها إلا بعد أن تحقّقوا من موت كافور، بعد ذلك أرسل المعزّ الفاطمي إلى مصرَ جوهر الصّقلي عام 358هـ؛ حيث مهّد لسيطرة الفاطميين عليها.

وكان كافور -إضافةً إلى ما اشتهر به من شجاعة وعدل وشهامة- رجلاً حليماً، فحينما هجاه المتنبّي كان في إمكانه وهو يحكّم مصر والحجاز إذ ذاك -وله الكثير من الأعداء والأتباع والجواسيس- أن يُرسل في أثره مَنْ يأتي به أو يقتله حيثما وجدّه، ولكنّه لم يفعل شيئاً من ذلك!

وَمَنْ يَدْرِي لَعَلَّ كَافُورًا اِكْتَفَى بِالذُّعَاءِ عَلَى الْمَتْنَبِيِّ؛ إِذْ
قُتِلَ الْمَتْنَبِيُّ شَرًّا قَتَلَهُ فِي حَيَاةِ كَافُورٍ، وَكَانَ قَتْلُهُ بِإِعْزَازِ
مِنْ قَبْلِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ الْحَاكِمِ الَّذِي قَصَدَهُ الْمَتْنَبِيُّ
بَعْدَ كَافُورٍ، حَيْثُ وَرَدَ فِي تَارِيخِ ابْنِ كَثِيرٍ: "أَنَّ عَضُدَ
الدَّوْلَةِ دَسَّ إِلَيْهِ مَنْ يَسْأَلُهُ أَيْمًا أَحْسَنَ عَطَايَا؛ عَضُدُ
الدَّوْلَةِ بِنُ بُوَيْهٍ، أَوْ عَطَايَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ بِنِ حَمْدَانَ؟ فَقَالَ:
هَذِهِ أَجْزَلُ وَفِيهَا تَكْلُفٌ، وَتِلْكَ أَقْلُ وَلَكِنَّهَا عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ
مِنْ مَعْطِيهَا، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِعَضُدِ الدَّوْلَةِ فَتَغَيَّبَ عَلَيْهِ، وَدَسَّ
عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَوَقَّفُوا لَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ
وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى بَغْدَادَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَانَ قَدْ هَجَا مُقَدَّمَهُمْ
ابْنَ فَاتِكِ الْأَسَدِيِّ، فَأَوْعَزَ إِلَيْهِمْ عَضُدُ الدَّوْلَةِ أَنْ
يَتَعَرَّضُوا لَهُ فَيَقْتُلُوهُ" [البداية والنهاية (11/273)].

والآن بعد معرفة كافور الإخشيدي عن قُرب، هل يجوز لنا أن نُكرّر أبيات الهجاء في حاكم شهم عادل كما وصفته كتب التاريخ؟ هل نتغنى بأبيات المتنبي في رجل استطاع أن يحقق النجاح بطريقة غير عادية، ونحن نعلم أنّ المتنبي ومَن معه مِنَ الزوّار على الحكّام لم يتمكّنوا مِنَ الوصول إلى ما وصل إليه كافور؟ هل نهجو مسلماً سُنِّيًّا صدَّ هجمات الفاطميّين، وكان سدًّا دونهم على مدى ثلاث وعشرين سنة؟ (سنوات حكمه مضافاً إليها تلك السنوات التي كان فيها أتباعاً).

ماذا قال المتنبي في مدح كافور؟

لقد تناقض المتنبي بين مدحه وهجائه، ولا نُريد أن نكون من الغاوين الذين يُنكرون حقائق التاريخ، ويتبعون هجاء المتنبي، فالأقرب إلى الصواب ما قاله في مدحه؛ لأنّه يوافق ما

أسدته إلينا كتب التاريخ من سيرة عطرة وثناء حسن،
فقد صدق حينما قال:

تَرَ عَرَاعَ الْمَلِكِ الْأَسْتَاذَ مُكْتَهَلًا *** قَبْلَ اكْتِهَالِ أَدِيبًا
قَبْلَ تَأْدِيبِ
مُجْرَبًا فَهَمًّا مِنْ قَبْلِ تَجْرِبَةٍ *** مُهَذَّبًا كَرَمًا مِنْ
غَيْرِ تَهْذِيبِ
حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نِهَآئَتَهَا *** وَهَمُّهُ فِي ابْتِدَآءَاتِ
وَتَشْبِيبِ
يُدْبِرُ الْمَلِكَ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنٍ *** إِلَى الْعِرَاقِ
فَأَرْضِ الرُّومِ فَالنُّوبِ
يُصَرِّفُ الْأَمْرَ فِيهَا طِينُ خَاتِمِهِ *** وَلَوْ تَطَّلَسَ مِنْهُ كُلُّ
مَكْتُوبِ
إِذَا غَزَتْهُ أَعَادِيهِ بِمَسْأَلَةٍ *** فَقَدْ غَزَتْهُ
بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلُوبِ
أَوْ حَارَبَتْهُ فَمَا تَنْجُو بِتَقْدِيمَةٍ *** مِمَّا أَرَادَ وَلَا تَنْجُو
بِتَجْبِيبِ

أَضْرَبْتُ شَجَاعَتُهُ أَقْصَى كَتَائِبِهِ *** إِلَى الْحِمَامِ فَمَا
مَوْتُ بَمَرِّ هُوبِ

لقد حظي المتنبي بالإكرام والعطاء عند كافور كما دلت
على ذلك أبيات شعره، ولكن أطماع المتنبي ورغائبه
في الوصول إلى ما لا يستحق جعلته يتنكر لكل ذلك.

الفصل الثالث

كافور الإخشيدي .. العبد الذي أصبح ملكاً

كافور الإخشيدي – اسمه ونشأته:–

كافور بن عبد الله، أبو المسك الإخشيدي ، الأمير المشهور، صاحب المتنبى، كان عبداً فأصبح ملكاً، وقد وُلِدَ سنة 292 هجرية، وأشار فريق ثانٍ إلى أن مولده كان سنة 297، بينما رجَّح آخرون ولادته سنة 308 هجرية.

سطوع نجم كافور الإخشيدي :-

كان كافور الإخشيدي عبداً مصرياً، ثم اشتراه الملك أبو بكر محمد بن طُغْج الإخشيد سنة 312هـ بثمانية عشر ديناراً بمصر من محمود بن وهب بن عباس؛ ولهذا نُسِبَ كافور إليه، فقليل: كافور الإخشيدي. وبسبب رجاحة عقله وسداد رأيه أعتقه، وقام بترقيته إلى أن جعله مشرفاً على تعليم ولديه، وأصبح من كبار القوَّاد، وجهزه في جيش لحرب 36

سيف الدولة، وشارك في الحملة المصرية على بلاد الشام سنة 333هـ.

وصوله إلى الحكم والسلطة:-

عندما توفي محمد بن طغج الإخشيد؛ تولى مملكة مصر والشام ولده الأكبر أبو القاسم أنوجور، وقام كافور الإخشيدي بتدبير دولته أحسن قيام إلى أن توفي أنوجور سنة 349هـ، وتولى بعده أخوه أبو الحسن علي، فاستمر كافور على نيابته وحسن إيالته، إلى أن توفي علي سنة 355هـ.

بعد ذلك استقل كافور بالمملكة سنة 355هـ، وأُشيرَ عليه بإقامة الدعوة لولد أبي الحسن علي بن الإخشيد، لكنه احتج بصغر سنِّه، وصار الحكم بيده، وأصبح لقبه "الأستاذ".

وكانت أيام حكمه سديدة جميلة، استطاع خلالها أن يحافظ على وجود البيت الإخشيدي في مواجهة الأخطار والاضطرابات التي كانت تعصف به آنذاك، ودُعي له على المنابر، واستمرت ولاية كافور سنتين وثلاثة أشهر إلا سبعة أيام. صفاته وأخلاقه:-

كان كافور يرغب في أهل الخير ويعظمهم، وكان أسود اللون، شديد السواد، وكان فطناً ذكياً، حسن السياسة، له نظر في العربية والأدب والعلم.

ألقاب كافور :-

احتفظ لنفسه بلقب "الأستاذ أبو المسك كافور".
عُرِفَ باسم "اللابي" نسبةً إلى إقليم اللّاب الواقع في النُّوبة (بين مصر والسودان).
عُرِفَ بلقب "الليث"، بحسب ما أورده ياقوت الحموي في "معجم البلدان".

الفصل الرابع

الدولة الطولونية

قامت الدولة الطولونية المستقلة عن الخلافة العباسية في مصر والشام والحجاز، وهي أول دولة تستقل بالحكم عن حكومة الخلافة المركزية. وتنسب هذه إلى الدولة إلى مؤسسها أحمد بن طولون الذي كان جنديًا تركيًّا، جاء إلى مصر نائبًا للحاكم العباسي فيها، لكنه استأثر بالحكم، ثم بسط سلطانه على الشام، حين كان العباسيون مشغولين بمقاومة ثورة الزنج.

الدولة الطولونية.. النشأة والمؤسس

شهدت الفترة الأولى من العصر العباسي الثاني -أو ما يُسمَّى بعصر نفوذ الأتراك- ظهور الدول المستقلة، بعد أن ضعفت قبضة الخلافة، وتولى أمرها من لم يكن في قدرة الخلفاء العباسيين الأوائل كفاءةً وحزمًا؛ فانفلت الأمر من أيديهم إلى قوادهم الأتراك الذين كانت الدولة تستعين بهم في تسيير أمورها وقيادة جيوشها، وظهر منهم شخصيات كبيرة استأثرت بالأمر دون

الخلافة الشرعي، وتدخلت في تعيين الخلفاء وعزلهم. ولذلك لم يكن غريباً أن يستأثر بعض الولاة بما تحت أيديهم، ويُنشئوا دولاً مستقلة - وإن كانت ترتبط بالخلافة- ويحكموا من خلالها، لكن النفوذ الفعلي في الولاية كان لحكامها لا للخليفة العباسي الموجود في بغداد، ومن أبرز الدول التي ظهرت في هذا العصر الدولة الطولونية التي قامت في مصر والشام والحجاز [1].

قامت الدولة الطولونية وهي إحدى الدول المستقلة عن الدولة العباسية، وامتدت فترة حكمها في الفترة من (254- 292هـ / 868- 905م). وتمثل الدولة الطولونية أول تجربة حكم محلي تحكم فيه أسرة أو دولة حكماً مستقلاً عن حكومة الخلافة المركزية، وقد كان مؤسس هذه الأسرة أحمد بن طولون [2] جندياً تركياً، وكان والده أحد الموالى الذين أهداهم 41

ملك بُخارى للخليفة العباسي المأمون، وقد جاء إلى مصر نائبًا للحاكم العباسي فيها، لكنه استأثر بالحكم، ثم بسط سلطانه على الشام، وكان العباسيون مشغولين بمقاومة ثورة الزنج. وحكم بعد أحمد بن طولون ابنه خمارويه الذي عقد معه الخليفة العباسي المعتضد اتفاقًا يقضي بمنحه هو وورثته الحكم في مصر والشام لمدة ثلاثين عامًا على أن يؤدي للخليفة مبلغًا سنويًا مقداره ثلاثمائة ألف دينار[3].

وبعد خمارويه بدأت الدولة الطولونية بالأفول، وأعاد الخليفة العباسي بسط نفوذ الدولة المركزية؛ إذ كانت الهيمنة في الدولة الطولونية للأتراك واليونان والنوبيين. وقد حكمها بعد خمارويه كل من جيش وهارون وشيبان حتى احتل جيش العباسيين مصر والشام بقيادة محمد بن سليمان[4]. وفي سنة 292هـ/ 905م دخلت الجيوش العباسية القطائع 42

تحت قيادة محمد بن سليمان، الذي قبض على الطولونيين وحبسهم، وأخذ أموالهم وأرسلهم إلى الخليفة، وأزال بقايا الدولة الطولونية التي حكمت مصر والشام مدة ثمانية وثلاثين عامًا [5].

شجرة الحكام

- 1- أحمد بن طولون (254-270 هـ / 868-884 م).
- 2- خمارويه بن أحمد (270-282 هـ / 884-895 م).
- 3- أبو العساكر جيش بن خمارويه (282-283 هـ / 895-896 م).
- 4- هارون بن خمارويه (283-292 هـ / 896-904 م).
- 5- شيبان بن أحمد (292 هـ / 905 م) [6].

تأسيس الدولة الطولونية

لم يكن أحد يتوقع أن يكون ذلك المملوك التركي مؤسسًا لدولة تحكم ذاتيًا بعيدًا عن الخلافة العباسية. لقد حفر التاريخ اسم أحمد بن طولون كمؤسس للدولة الطولونية، وهو من

المماليك الأتراك، ولد عام 214هـ / 829م، وقد نشأ نشأة دينية؛ فكان يعيب على الأتراك ما كانوا يرتكبونه من المنكرات، وقضى حياته السياسية والعسكرية الأولى في ثغر طرسوس، وتمتع منذ البداية باحترام الأتراك في حاضرة الخلافة، وبعد وفاة والده عام (230هـ / 845م) فوّض إليه الخليفة المتوكل ما كان بيد أبيه، كما حظي بثقة الخليفة المستعين. بعد وفاة والده تزوجت والدته بالأمير بايكباك التركي الذي عينه الخليفة المعزز والياً على مصر في عام (254هـ / 868م)؛ فأرسل أحمد ليتولى حكمها بالنيابة عنه، ولم يكن له كل الولاية وإنما كان على الصلاة، وله الحاضرة المصرية (الفسطاط).

ساعدت الظروف أحمد بن طولون في تثبيت أقدامه في مصر، فقد حدث أن قُتل بايكباك في عام (256هـ / 870م)، فأُسندت ولاية مصر إلى يارجوخ الذي كانت

تربطه بابن طولون علاقات طيبة ومصاهرة، فأقرّه على ما بيده، وزاد في سلطته بأن استخلفه على مصر كلها، باستثناء الخراج الذي ظلّ بيد منافسه أحمد بن المدبر الذي اشتهر بسوء السيرة؛ مما دفع ابن طولون إلى أن طلب من الخليفة المهدي أن يُقيل ابن المدبر من خراج مصر ويولّيّه إياه، فاستجاب الخليفة لطلبه، كما ولّاه إمرة الثغور الشامية على إثر اضطراب أوضاعها. ولما تُوفّي يارجوخ في عام (259هـ / 873م) أضحى ابن طولون حاكم مصر الشرعي من قبل الخلافة مباشرة، فتولّى مقاليد الأمور كلها، ودانت له الإسكندرية وبرقة، وقَدّم له أمراء الكور الخضوع والطاعة [7].

الثورات في عهد أحمد بن طولون

أولاً: ثورات العلويين:

1- ثورة بغا الأصغر:

كان أول هذه الثورات ثورة بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله طباطبا، الذي ترك العراق ونزل مع أتباعه في موضع بين الإسكندرية وبرقة يقال له: الكنائس، وذلك في جمادى الأولى سنة 255هـ/ 869م، ثم اتجه بمجموعته إلى الصعيد، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشاً بقيادة بهم بن الحسين، هزمهم وأتى برأسه إلى الفسطاط [8].

2- ثورة ابن الصوفي العلوي:

واسمه إبراهيم بن محمد بن يحيى من سلالة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ثار سنة 253هـ/ 867م في مصر العليا، واستطاع الاستيلاء على إسنا في ذي الحجة سنة 255هـ/ أكتوبر 868م، فنهبها وقتل جمعاً من أهلها. ولما استفحل خطره، سَير إليه ابن طولون .

جيشًا بقيادة أزداد فتغلب عليه ابن الصوفي، ومثّل بقائده أشنع تمثيل؛ فبادر ابن طولون بإرسال جيشًا آخر بقيادة بهم بن الحسين، فاستطاع التغلب على ابن الصوفي الذي فرّ إلى الصحراء الغربية وظل بها ما يقرب من أربع سنوات، ثم عاد في سنة 258هـ/ 871م إلى الأشمونين ليصطدم مع ثائر آخر في أسوان هو عبد الرحمن العمري ويُهزَم، ثم يغادر بعد خلاف بينه وبين أنصاره ويدخل بلاد البجة إلى أن يصل إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومنه إلى مكة [9].

3- ثورة العمري:

قلق ابن طولون من نشاط العمري [10]، فأرسل إليه جيشًا إلا أن هذا الجيش هُزِم، ثم آثر ابن طولون السلامة معه، بعد أن كتب له العمري أنه في مائة ألف أو يزيدون. ومن محاسن أقدار ابن طولون أن العمري لم يبقَ طويلًا؛ إذ قتله غلامان من قبيلة مُضَر، وحُمِلَ رأسه إلى ابن طولون [11].

ثانيًا: ثورة أهل مدينة برقة:

قام أهل مدينة برقة سنة 262هـ بثورةٍ، وطردوا عامل ابن طولون عليها، فسير إليهم ابن طولون جيشًا بقيادة لؤلؤ الذي اتبع معهم سياسة اللين في البداية غير أنهم لم يخضعوا له، فاضطر لؤلؤ إلى استخدام العنف معهم، وحاصرهم، وشدد عليهم حتى اضطرُّوا إلى طلب الأمان، وفتحوا أبواب مدينتهم له، فدخلها وقبض على زعماء الثورة، وعيّن عليهم واحدًا من مواليه، ثم عاد إلى مصر [12].

ثالثًا: ثورة العباس بن أحمد بن طولون:

خرج أحمد بن طولون إلى بلاد الشام في شعبان 264هـ، واستخلف ابنه العباس على مصر، وضم إليه أحمد بن محمد الواسطي مدبرًا ووزيرًا له، لكن بطانة السوء أشارت على العباس إعلان العصيان على أبيه، والقبض على

الواسطي الذي أرسل لابن طولون يُعلِّمه بما يحدث، ثم اتجه إلى برقة، ولما عاد ابن طولون إلى مصر استطاع أن يقبض على ابنه، وأن يضعه في السجن حتى مات في عهد أخيه خمارويه بن أحمد بن طولون [13].

ابن طولون والخليفة المعتمد

وعلى الرغم من أن المعتمد على الله كان يتولى منصب الخلافة فإنه لم يكن له من الأمر شيء، وكانت مقاليد الأمور في يد أخيه الموفق ولي عهده، وبلغ من تضيق الموفق على أخيه المعتمد وإبعاده عن مباشرة أمور الدولة أن احتاج الخليفة يوماً إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها، فقال:

أليس من العجائب أن مثلي *** يرى ما قلّ ممتنعًا
عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعًا *** وما من ذاك شيء
في يديه

إليه تُجمَع الأموالُ طُرًّا *** ويُمنع بعض ما
يُجبي إليه

وكان الموفق قد استقلَّ الأموال التي أرسلها إليه أحمد
بن طولون لمساعدته في مواجهة ثورة الزنج التي
هددت الدولة العباسية خمسة عشر عامًا (255-
270هـ)؛ مما جعل العداء يشتد بينهما [14].

وحاول ابن طولون بعد أن امتد سلطانه، واتسع نفوذه أن
يغري الخليفة المعتمد بالقدوم عليه في مصر، وأن
يجعل من مصر مقرًّا لدولة الخلافة؛ فكتب إليه بهذا
الشأن في سنة (268هـ / 882م)، ووعده بالنصرة
والحماية، لكن الخليفة لم يُجبه إلى عرضه إلا بعد ذلك

بعام، فأرسل إليه يخبره بأنه خارج إليه، وكان ابن
طولون في دمشق يستعد لقمع فتنة

50

شَبَّتْ في طرسوس، غير أن محاولة الخليفة اللحاق بأحمد بن طولون فشلت، وتمكَّن الموفق من ردِّ الخليفة إلى سامراء عاصمة الخلافة، وإثناؤه عن محاولته. وترتب على هذا أن قام الموفق بعزل ابن طولون عن مصر، لكن القرار لم يلقَ قَبولاً من ابن طولون الحاكم القوي وصاحب النفوذ والسلطان، ولم يكتفِ بعدم التنفيذ، بل عقد اجتماعاً في دمشق جمع فيه القضاة والفقهاء والأشراف من أنحاء ولايته، وأعلن خلع الموفق من ولاية العهد؛ لِتَحْكُمه في الخليفة الشرعي واستبداده بالأمر دونه، وكتب بذلك إلى عماله في أنحاء مصر والشام، غير أن صوت العقل تدخل بين الطرفين، وعُقد بينهما صلح، وأقر ابن طولون على ما تحت يديه من البلاد[15].

مظاهر الحضارة في الدولة الطولونية
كان أحمد بن طولون

رجل دولة من الطراز الأول؛ فعني بشئون دولته، وما يتصل بها من مناحي الحياة، ولم تشغله طموحاته في التوسع وزيادة رقعة دولته عن جوانب الإصلاح والعناية بما يحقق الحياة الكريمة لرعيته؛ ولذا شملت إصلاحاته وإسهاماته شئون دولته المختلفة.

1- القطائع:

أسس أحمد بن طولون مدينة جديدة في سنة 256هـ/ 870م على جبل يشكر -الذي يعرف بقلعة الكباش- بين الفسطاط وتلال المقطم، وقد سميت المدينة الجديدة باسم القطائع؛ لأن كل طائفة من رجاله اتخذت لها قطيعة لسكانها، فيقال: قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفرائشين، وبني القواد مواضع متفرقة، فعمرت القطائع، وبُنيت فيها المساجد والطواحين والحمامات، حتى صارت القطائع مدينة كبيرة.

وبنى ابن طولون في مدينة القطائع قصرًا ضخماً، جعل أمامه ميداناً فسيحاً ليستعرض فيه جيشه، ثم أقام حول القصر ثكنات لجنوده وحاشيته[16].

2- مسجد أحمد بن طولون:

أراد أحمد بن طولون أن يشيد مسجداً جامعاً بالقطائع لا تأتي عليه النيران أو تهدمه مياه الفيضان، فإن احترقت مصر بقي، وإن غرقت بقي، فحقق له المهندس رغبته، فبناه جميعه من الآجر الأحمر، ورفع على دعائم من الآجر أيضاً، ولم يدخل في بنائه أعمدة من الرخام سوى عمود القبلة، وانتهى بناؤه سنة 265هـ / 878-879م، وقد استغرق بناؤه عامين. والجامع مربع الشكل، يتوسطه صحن مكشوف، تحيط من جوانبه الأربعة أربعة أروقة مسقوفة، إضافة إلى ثلاثة أروقة خارجية[17].

3- البيمارستان:

أنشأ ابن طولون بيمارستاناً سنة (259هـ / 872م) لمعالجة المرضى مجاناً دون تمييز بين الطبقات والأديان، وجعل العلاج فيه دون مقابل، وألحق به صيدلية لصرف الأدوية، فإذا دخل المريض المستشفى تنزع ثيابه وتقدّم له ثيابٌ أخرى، ويودع ما معه من المال عند أمين المارستان، ويظل المريض تحت العلاج حتى يتم شفاؤه، وكانت دلالة شفاء المريض قدرته على أكل رغيف كامل [18] ودجاجة، وعندئذ يُسمح له بمغادرة المستشفى، وكان ابن طولون يتفقد المستشفى، ويتابع علاج الأطباء، ويشرف على المرضى [19].

4- إنشاء القناطر:

شيّد أحمد بن طولون في الجنوب الشرقي من القطائع قناطر للمياه، وكان الماء يسير في عيونها إلى القطائع من بئر حفرة في أسفلها،

وكان يرفع الماء من البئر إلى القناطر بواسطة ساقية، وقد بنيت هذه القناطر من نفس الآجر الذي بُني منه الجامع الطولوني. لهذا يعتقد أن المهندس الذي شيدها هو نفس المهندس الذي شيده الجامع، ولا تزال بقية من هذه القناطر باقية إلى اليوم في حي البساتين بالقاهرة.

5- مسجد التنور:

شيّد أحمد بن طولون مسجدًا آخر على جبل يشكر يعرف بمسجد التنور، ويذكر المؤرخون أن مسجد التنور هو موضع تنور فرعون، كان يوقد له عليه، فإذا رأوا النار علموا بركوبه فاتخذوا له ما يريد، وكذلك إذا ركب من عين شمس، ويقال: إن تنور فرعون لم يزل في هذا الموضع بحاله إلى أن خرج إليه قائد من قواد أحمد بن طولون فهدمه وحفر تحته، ويبدو أنه كان يظن أنّ هناك مالاً مدفوناً تحته ولكنه لم يجد شيئاً. وقد بنى

أحمد بن طولون لهذا الجامع مئذنة، كانت تستعمل فيها النيران ليلاً لهداية الناس [20].

6- الزراعة:

بذل أحمد بن طولون قصارى جهده لتشجيع الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي، فأصلح التُّرَع والقنوات التي تروي الحقول، وحفر الجديد منها، وأصلح السدود المحطمة، وحمى الفلاحين من ظلم جُباة الضرائب وتعسفهم؛ مما أدَّى إلى ازدياد مساحات الأرض المزروعة من جهة، ووصول أسعار الحبوب إلى أدنى مستوى [21].

7- الصناعة:

ازدهرت الصناعة في عهد أحمد بن طولون، ويأتي على رأس الصناعات التي اشتهرت بها مصر آنذاك صناعة النسيج، من ذلك صناعة الكتان التي اكتسبت أسواقاً جديدة، وكانت تُصنع أنواع مختلفة من الكتان في مصر السفلى في مدن تَبَّيس ودمياط

وَدَبِيقَ وَشَطَا وَدَمِيرَةَ وَغَيْرَهَا، وَفِي مِصْرَ الْعَلِيَا فِي مَدَن
الْفَيُومِ وَالْبَهْنَسَا وَإِخْمِيمَ. وَاشْتَهَرَتْ مِصْرٌ أَيْضًا بِصِنَاعَةِ
الْمَنْسُوجَاتِ الصُّوفِيَّةِ، إِضَافَةً إِلَى الْمَنْسُوجَاتِ الْمَطْرُزَةِ
بِالذَّهَبِ وَالْمَوْشَاةِ الَّتِي أُنتِجَتْهَا مَدِينَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عُرِفَتْ
بجودتها العالية [22].

8- إصلاح مقياس الروضة:

قام أحمد بن طولون بإصلاح مقياس النيل بالروضة
الذي أقامه والي مصر أسامة بن زيد التنوخي سنة
96هـ / 715م لقياس ارتفاع منسوب مياه النيل، ثم جُدِّد
هذا المقياس على أيام الخليفة المأمون العباسي سنة
199هـ / 814م، ثم أُعيد إنشاؤه زمن الخليفة المتوكل
سنة 247هـ / 861م إلى أن قام أحمد بن طولون
بإصلاحه، وما زال هذا المقياس موجودًا إلى اليوم في
جزيرة الروضة [23].

9- حصن الروضة:

شيد أحمد بن طولون حصناً منيعاً بجزيرة الروضة ليكون معقلاً له، لا سيّما أن العداء بينه وبين الموفق -أخي الخليفة المعتمد- كان على أشدّه، وتكررت محاولات الموفق لإبعاد ابن طولون من مصر [24].

وفاة أحمد بن طولون.. والثناء عليه
بعد عقد صلح بين ابن طولون والموفق، وحلول الصلح بينهما، زحف ابن طولون ليقمع الفتنة التي شبت في طرسوس، فلما وصل إلى هناك، وكان الوقت شتاءً والثلج كثيراً، لم يعُقه ذلك عن نصب المجانيق على سور طرسوس لإخماد الثورة، لكنه مرض ولم يستطع الاستمرار في الحصار؛ فأسرع بالعودة إلى مصر، حيث لقي ربه في 10 من ذي القعدة 270هـ/ 10 من مايو 883م [25].

وقد أثنى عليه ابن الأثير قائلاً: "وكان عاقلاً

حازمًا، كثير المعروف والصدقة، متدينًا، يحب العلماء
وأهل الدين، وعمل كثيرًا من أعمال البر ومصالح
المسلمين" [26].

خمارويه بن أحمد بن طولون
وُلِدَ خمارويه بن أحمد بن طولون عام مائتين وخمسين
هجريّة، وتولّى جيوش مصر وهو دون العشرين من
عمره، وقد كان لديه كثير من الأعوان، فأولى اهتمامًا
بالجيش لمواجهة ما ينتظره من تحديات، وعُنِيَ عناية
خاصة بفرقة "المختارة" التي كانت تُشكّل جنده وحرسه
الخاص، كما اهتم بمظهر الجنود وزيّهم؛ ولذلك لُقّب
بأبي الجيوش [27].

بعد وفاة أحمد بن طولون، خَلَفَه ابنه خمارويه، وكان
ابن طولون قد أوصى له بالإمارة وبإيعه الجند عقب
وفاة أبيه في ذي الحجة 270هـ [28].

علاقة خمارويه بالدولة العباسية

عندما تُوفِّي أحمد بن طولون سنة 270هـ/ 883م قام الموفق بالإغارة على الشام للقضاء على الدولة الطولونية، لاعتقاده أن خمارويه لم يكن رجل حربٍ لميله إلى حياة السلم والرخاء، فاستولى الموفق على الشام حتى الحدود المصرية، لكن خمارويه أفضل خطته وردّه على أعقابه، واستعاد سيطرة الطولونيين على البلاد الشامية حتى الموصل والجزيرة الفراتية، وانتزع من الخلافة العباسية اعترافاً له بحكم مصر -هو وأولاده- لمدة ثلاثين سنة عند عقد معاهدة صلح سنة 273هـ/ 886م بينه وبين الخليفة العباسي المعتمد ووليّ عهده الموفق، على أن يكفّ خمارويه عن لعن الموفق على منابر مصر والشام، والدعاء له مع الخليفة المعتمد على الله العباسي[29].

الجيش في عهد خمارويه

كَوْن خمارويه فرقة من أولاد الحوف -أي الذين كانوا يسكنون إقليم الحوف[30]- وكانوا يشتغلون بقطع الطرق وإلحاق الأذى بالناس، ويتميزون بضخامة الأجسام والشجاعة والبأس، فرأى خمارويه أن يستفيد من شجاعتهم وقوتهم البدنية، فأدخلهم في خدمته، وسمّاهم (المختارة)، وكانوا يلبسون الأقبية من الحرير والديباج، ويتقلدون السيوف المحلاة، وتسير خلفهم طوائف العسكر المختلفة[31].

قصة زواج قطر الندى

فكّر خمارويه في تدعيم علاقاته مع الخلافة العباسية عن طريق المصاهرة، فعرض على الخليفة المعتضد زواج قطر الندى ابنة خمارويه من ابن الخليفة العباسي، إلا أن الخليفة المعتضد -وكان قد سمع عن محاسن وجمال قطر الندى- طلبها لنفسه بدلاً

من ابنه. وقد بالغ خمارويه في جهاز ابنته وتكلف في ذلك ما يقصر دونه الوصف من بناء القصور في كل مرحلة على طول الطريق بين مصر وبغداد لنزول العروس، كما أكثر من الجواهر والتحف حتى إنه أنفق في ذلك مليون دينار؛ مما أدى إلى إفلاس خزانة مصر [32].

وكان جهازها الذي أعده أبوها أسطوريًا بالغًا في الإسراف إلى حدٍّ يفوق الخيال، وهنا أدعُ المؤرخ الكبير ابن تغري بردي يصف جهازها ورحلتها من مصر إلى بغداد، حيث يقول: "إنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنه دخل معها في جملة جهازها ألف هاون من الذهب" [33]، "ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته قطر الندى، أمر فبُنِيَ لها على رأس كل مَنْزِلَةٍ تنزل فيها قصرٌ فيما بين مصر وبغداد... فكانوا يسرون بها سيرَ الطفل في المهد؛ فكانت إذا وافت المنزلة وجدت

قصرًا قد فُرِشَ، فيه جميع ما تحتاج إليه، وقد علقت فيه الستور، وأُعدَّ فيه كل ما يصلح لمثلها، وكانت في سيرها من مصر إلى بغداد -على بُعد الشُّقَّة- كأنها في قصر أبيها" [34].

وكان هذا الإسراف من قِبَل خمارويه سببًا في إفلاس مالية البلاد، وكانت مصر من أغنى الدول وأكثرها ثراءً. ويبدو أن الخلافة العباسية عندما يئست من إخضاع دولة الطولونيين بالقوة لجأت إلى إضعافها بالسياسة، حتى قيل: إن المعتضد أراد بزواجه من قطر الندى أن يُفقر أباه خمارويه في جهازها [35]. ولم يُحسِن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمَّة التي تركها له أبوه، فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف، وأهم ما قام به توسيع قصر أبيه بالقطائع، وتحويل الميدان إلى حديقة غنَّاء لم يُسمَع بمثلها. ولما كَثُرَ أرقه وامتنع عليه النوم، أنشأ بركة من الزئبق يقال:

إنها خمسون ذراعًا عرضًا، يهتز عليها فراشه لينام وهو يتهدد، وقد شدَّ الفراش بخيوط من حرير إلى أعمدة من الفضة، واستكثر خمارويه من الجوارى والغلمان حتى ضاعت هيئته. وتُوفِّي قتيلاً على يد بعض جواريه في دمشق في ذي الحجة سنة 282هـ/ يناير 896م [36].
الدولة الطولونية بعد خمارويه

بعد وفاة خمارويه لم تستطع مصر الاحتفاظ باستقلالها الذي تعب أحمد بن طولون في تحقيق وجوده؛ إذ أصبحت مصر ميدانًا للضعف والفوضى من ناحية، ومسرحةً لأحداث دامية أطاحت بوحدة الطولونيين، وعجّلت بزوال نفوذهم.

وقد حكم مصر بعد وفاة خمارويه ثلاثة من البيت الطولوني لم يزد حكمهم جميعًا على عشر سنوات، وخلف خمارويه ابنه أبو العساكر جيش (282-

284هـ)، وكان

صبيًا طائشًا منغمسًا في اللهو، وأقبل على الشرب،
واتخذ من سفلة الناس حاشيةً له، وخرجت بلاد الشام
وما يليها عن طاعته؛ وعندئذٍ غضب عليه قواد جيشه،
وتبرأ العلماء من بيعته، وانتهى الأمر بخلعه وسجنه في
سنة 283هـ/ 896م، وتولية أخيه الأصغر أبي موسى
هارون (284- 292هـ) وكان صغيرًا لم تزد سنُّه على
الرابعة عشرة، الأمر الذي جعله لا يصلح للحكم. وفي
عهده ظهر القرامطة في بلاد الشام سنة 289هـ، وهم
طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن
جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها، ونادوا بمبدأ
شيوع الثورة، وقد أسس أحد قوادهم وهو أبو سعيد
الجنابي دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة 286هـ؛
حيث استطاعت هذه الدولة أن تبسط سيادتها على كثير
من أرجاء الجزيرة العربية، وقد أنفذ هارون جيشًا
لمحاربتهم ببلاد

الشام، ولكن هذا الجيش عجز عن إخراجهم من بلاد الشام وقمع خطرهم[37].

أدى ضعف الدولة الطولونية إلى رغبة الخلافة العباسية في إعادة مصر إلى نفوذها المطلق، فأرسل الخليفة المكتفي قائدَه محمد بن سليمان الكاتب للقضاء على الطولونيين، فنزل بحمص وبعث بأسطول إلى سواحل مصر، وفي (تَنيس) التقى الأسطولان العباسي والمصري، فَحَلَّت الهزيمة بأسطول مصر، ووقعت تَنيس ودمياط في يد محمد بن سليمان، وفرَّ هارون إلى العَبَّاسَة -بمحافظة الشرقية- حيث قتله عمَّاه: شيبان وعدي ابنا أحمد بن طولون في صفر سنة 292هـ/ 905م، فلم يرضَ قوادُ الجند عن عملهما. ولما عُيِّن شيبان على ولاية مصر رفضوا الموافقة على تعيينه، وكاتبوا محمد بن سليمان، فنزل الفسطاط، وألقى النار في مدينة القطائع عاصمة الطولونيين. وهكذا قُضِيَ

على الدولة الطولونية، وخربت القطائع، ولم يبقَ منها
غير المسجد الجامع شاهداً على عظمة الدولة
الطولونية[38].

الدولة الطولونية في عيون المؤرخين
لعلّه من الإنصاف القول: إنه على الرغم من أن
الطولونيين حكّامٌ ينتمون إلى أصول غربية عن مصر،
وفدوا إليها قادمين من بغداد عاصمة الخلافة العباسية،
فإن تاريخهم يمثل صفحة رائعة من تاريخ مصر؛ ذلك
لأنهم كرّسوا معظم جهودهم للنهوض بأمرها، وارتبطوا
بها وتقربوا إلى المصريين، وأحاطوهم برعايتهم. وأبلغ
دليل على ذلك ما قاله المؤرّخ البلوي في أحمد بن
طولون: "وأما إشفاقه على أهل مصر فكان يزيد على
كل إشفاق، حتى إنه كان يجوز إشفاق الوالد على ولده،
يحوطهم، ويرعى أحوالهم ومصالحهم، ويدفع كل
مكروه عنهم"[39].

ولذلك عندما قضت الخلافة العباسية على

الدولة الطولونية شعر المصريون بالحزن والحسرة،
وبقيت ذكراها ماثلة في أذهانهم. ويشير المؤرخ أبو
المحاسن إلى أن تلك الدولة كانت من "غُرر الدول،
وأيامهم من محاسن الأيام"[40].

أعلام الدولة الطولونية

1- في العلوم الدينية:

نبغ في عهد الدولة الطولونية عددٌ كبير من الفقهاء
والمحدثين، نذكر منهم من علماء المالكية محمد بن عبد
الله بن الحكم المصري المتوفى سنة 268هـ / 881م،
الذي تولّى الإفتاء بمصر، وكان فقيه مصر على مذهب
مالك، وإليه تُشَدُّ الرِّحال من المغرب والأندلس، وله
مصنّفات كثيرة [41].

ومن المالكية أيضاً محمد بن أصبغ بن الفرّج المتوفى
سنة 275هـ / 888م، وروح بن الفرّج أبو الزنباع
الزبيري المتوفى سنة 282هـ / 895م [42]، وأحمد بن
محمد بن خالد الإسكندراني المتوفى سنة 309هـ /
921م [43].

أما الشافعية فقد نبغ منهم الربيع بن سليمان المرادي، صاحب الشافعي، وهو الذي روى أكثر كتبه، وقال الشافعي عنه: "الربيع راويتي"[44]. وقال أيضاً: "ما خدمني أحدٌ ما خدمني الربيع"[45]. وتُوفِّي سنة 270هـ/ 883م[46].

ومن فقهاء الشافعية قحزم بن عبد الله الأسواني المتوفَّى سنة 271هـ/ 884م، وهو من أصل قبطي، وكان من جملة أصحاب الشافعي الآخذين عنه، وكان مقيماً بأسوان[47]. ومن الشافعية أيضاً أبو القاسم بشر بن منصور البغدادي المتوفَّى سنة 302هـ/ 914م، الذي جاء إلى مصر وتفقّه على المذهب الشافعي[48]. أمّا الفقهاء الحنفية، فمن أشهرهم القاضي بكار بن قتيبة الثقفي المتوفَّى سنة 270هـ/ 883م، وله أخبار في العدل والعفة والنزاهة والورع[49].

ومنهم أيضاً أحمد بن أبي عمران المتوفى سنة 285هـ/
898م، وكان من أكابر الحنفية وهو شيخ
الطحاوي [50].

2- في الطب:

اشتهرت مصر في العصر الطولوني بالطب، فظهر
منهم سعيد بن ترفيل، وهو مسيحي كان في خدمة أحمد
بن طولون، وسعيد بن البطريق المتوفى سنة 328هـ/
939م، وهو مسيحي أيضاً كانت له عدة مؤلفات منها
تاريخه المسمى (التاريخ المجموع على التحقيق
والتصديق) [51].

3- في الحياة الأدبية واللغوية:

كان أحمد بن طولون وابنه خمارويه يقرّبان الشعراء
ويبالغان في الإغداق عليهم، ومما يدل على كثرة
الشعراء في مصر الطولونية ما رواه المقرئ عن
القاضي أبي عمرو عثمان النابلسي في كتابه (حسن

السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة)؛ إذ قال: "رأيت
كتابًا قدر

71

اثنتي عشرة كراسة، كم يكون شعرهم مع أنه لم يوجد
من ذلك الآن ديوان واحد" [52].

ومن الكُتَّاب الذين ظهرُوا في عهد الطولونيين جعفر بن
عبد الغفار المصري، الذي اتخذهُ أحمد بن طولون كاتبًا
له، ولم يكن لدى هذا الكاتب الكفاية والمقدرة بحيث
يستطيع القيام بأعباء هذا المنصب، فأشار أحمد بن
خاقان صديق أحمد بن طولون عليه بعزله، ولكنه رفض
قائلًا: "أنا أحتمله لأنه مصري". فقال له ابن خاقان:
"أراك أيها الأمير تفضّل الكاتب المصري على الكاتب
البغدادي". فقال له ابن طولون: "لا والله، ولكن أصلح
الأشياء لمن يملك بلدًا أن يكون كاتبه منه" [53].

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية في العصر الطولوني
على يد الوليد بن محمد التميمي المعروف بولّاد، كذلك
أنجبت المدرسة اللغوية أحمد بن جعفر الدينوري

صاحب كتاب

(المهذَّب في النحو)، وأبا جعفر النحاس صاحب كتاب
(معاني القرآن ومنسوخه)، ومحمد بن حسان
النحوي [54].

4- المؤرِّخون:

ظهر في مصر في العصر الطولوني بعض الكتاب
الذين اهتموا بتدوين التاريخ والخطط، ومن أشهرهم عبد
الرحمن بن عبد الحكم القرشي المتوفَّى سنة 257هـ/
871م، الذي يَمُتُّ إلى عصر الولاة أكثر مما يمتُّ
للطولونيين، وكان من أهل الرواية والحديث، ثم شُغِفَ
بالقصص والأخبار، وكَلَّفَ بالتاريخ، ومن مؤلِّفاته كتاب
(فتوح مصر)، ويُعدُّ ابن عبد الحكم أول مؤرِّخ لخطط
مصر الإسلامية [55].

ومن أشهر مؤرِّخي مصر في العصر الطولوني أبو
جعفر أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية، وقد ألَّفَ
كتابًا في (سيرة أحمد بن طولون)، وكتابًا آخر في سيرة
خمارويه، ويقول

ابن زولاق: "وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبي الجيش، وأنشد في الناس، وقرأتهما عليه، وحدثتُ بهما عنه، مع غيرهما من مصنّفاته، ثم عملتُ أنا ما فاته من سيرتهما"[56].

ويتضح من كلام ابن زولاق أن ابن الداية كانت له كتب أخرى في التاريخ، وقد أشارت المراجع الأخرى التي ترجمت له إلى هذه الكتب وهي كتاب (أخبار غلمان بني طولون)، وكتاب (حُسن العقبي)، وكتاب (أخبار الأطباء)، وكتاب (المكافأة)[57].

وكذلك من أشهر مؤرخي الدولة الطولونية أبو محمد عبد الله بن محمد المديني المعروف بالبلويّ، ولا نعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكننا نعرف أنه ينتمي إلى قبيلة بَلِيّ العربية، وأنه عاش في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وكان ابن النديم أول من ترجم له في كتابه (الفهرست)،

فذكر أنه كان عالمًا وفقيرًا وواعظًا، وأنه ألف كتبًا كثيرة منها: كتاب الأبواب، وكتاب المعرفة، وكتاب الدين وفرائضه [58]. وقد فُقدت هذه الكتب جميعًا ولم يبقَ من مؤلفاته إلا كتابه (سيرة أحمد بن طولون) الذي يُعدُّ من أهم المصادر لدراسة تاريخ مصر والشرق الأدنى الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) [59].

النهاية

الفهرسة

الاهداء:4

المقدمة:5_10

الفصل الاول:11_24

الفصل الثاني:25_37

الفصل الثالث:38_40

الفصل الرابع:41_72

المراجع:

حكايات | كافور الإخشيدي.. حبشي «مسلوب الرجولة»
حكم مصر وهزمته أبيات المتنبي | بوابة أخبار اليوم
الإلكترونية"

<https://m.akhbarelyom.com/news/newdetails/2671866/1/%D8%AD%D9%>

الكندي، محمد بن يوسف – ولاء مصر – تحقيق حسين
نصار – دار صادر – بيروت – بدون تاريخ.

بن خلكان – وفيات الأعيان – تحقيق إحسان عباس –
دار صادر – بيروت 1397 هـ – 1977 م

"الدولة الإخشيدية .. تاريخ وحضارة - إسلام أون لاين"
<https://islamonline.net/archive/%D8%A>

"كافور الإخشيدي بين هجاء المتتبي وحقفة التاريخ –

تاريخنا – صحح تاريخك | قصة الإسلام"

[/https://islamstory.com/ar/artical/21214](https://islamstory.com/ar/artical/21214)

"كافور الإخشيدي .. العبد الذي أصبح ملكاً | تاريخكم"

<https://www.taree5com.com/%D9%83>

%

موقع إسلام أون لاين.

[2] طولون تحريف لكلمة دولون، وتعني بدر التمام.

[3] موقع منتديات التاريخ.

[4] المصدر السابق نفسه.

[5] موقع محيط.

[6] محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة العباسية

ص195.

[7] المصدر السابق ص195، 196.

[8] محمود محمد الحويري: مصر في العصور

الوسطى ص104، 105.

[9] المصدر السابق ص104، 105.

[10] وهو نائر ظهر في أسوان وشمال النوبة، وهو من

سلالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واسمه عبد الله

بن عبد الحميد بن عبد العزيز.

[11] محمود محمد الحويري: مصر في العصور
الوسطى ص 107.

[12] حمدي عبد المنعم محمد حسين: محاضرات في

تاريخ مصر الإسلامية ص53، 54.

[13] السابق نفسه ص54-57.

[14] محمود الحويري: مصر في العصور الإسلامية

ص106، 107.

[15] موقع إسلام أون لاين.

[16] محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى

ص113.

[17] حمدي عبد المنعم حسين: محاضرات في تاريخ

مصر الإسلامية ص72.

[18] كان الرغيف في ذلك الزمن كبير الحجم.

[19] محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى

ص114.

[20] حمدي عبد المنعم حسين: محاضرات في تاريخ

مصر الإسلامية ص74-76.

[21] محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى

ص116.

[22] المصدر السابق ص116.

[23] حمدي عبد المنعم حسين: محاضرات في تاريخ

مصر الإسلامية ص76.

- [24] المصدر السابق ص76.
- [25] موقع إسلام أون لاين.
- [26] ابن الأثير: الكامل 6/328.
- [27] موقع مصر الخالدة.
- [28] محمود الحويرى: مصر في العصور الوسطى
ص110.
- [29] إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي
والحضاري ص179.
- [30] إقليم الحوف هو الأراضي الواقعة شرقي دمياط.
- [31] محمود الحويرى: مصر في العصور الوسطى
ص115.
- [32] حمدي عبد المنعم محمد حسين: محاضرات في
تاريخ مصر الإسلامية ص67، 68.
- [33] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة 3/66.
- http

الدولة الطولونية | قصة الإسلام"

<https://www.islamstory.com/ar/artical/20045/%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%>

D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84
%D8%B7%D9%88%D9%84%D9%88
%D9%86%D9%8A%D8%A9

عثمان أبكر عثمان عبدالله من مواليد شمال الخرطوم في
منطقة الجبلي عام 1988 درس الاساس في الخرطوم
جنوب ثم في الثانوي في الخرطوم ثم جامعة إفريقيا
العالمية

كلية الإعلام

osman21c@gmail.com

osman81c@outlook.com

osman31c@gmail.com